

إعجاز القرآن في دلالة الفطرة على الإيمان

بقلم:

د. سَعْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ الشَّهْرَانِيِّ

عضو هيئة التدريس بقسم العقيدة جامعة أم القرى



المقدمة

الحمد لله فاطر السموات والأرض، فطر عباده على توحيدِه ومعرفته، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لعلمهم يشكرون، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد:-

لقد عظم الإسلام أمر الفطرة وأعلى شأنها، حيث وصف الله تعالى في القرآن الكريم الدين بها، وأمر باتباعها وحذر العباد من تغييرها مبيناً أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه الله وجعل مستقيماً قيماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي. فرسالة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، وهذا ما بينه الله ﷻ في كتابه الكريم في مواضع عدّة، منها قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

قال الإمام ابن تيمية ~ في هذا المعنى: « الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة » (١).

إن معرفة الله تعالى فطرية، والمراد بهذا أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقاً مدبراً، وتستوجب معرفته إياه، وتألهه له.

وهذه الصفة ذاتها هي القوة المغروزة في الإنسان، التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل، وإرادته للنافع دون الضار، وإذا كان قد علم بالبراهين اليقينية

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣٤٨/١٦).

القاطعة، أن وجود الخالق هو أعظم الحقائق، وأن معرفته والتأله له أعظم المنافع، فإنه يتعين بذلك أن يكون في الفطرة ما يقتضيه معرفة الصانع والإيمان به^(١).

والقرآن الكريم كلام رب العالمين يجلي هذه الحقيقة ويقررها بأبدع البيان، وأوضح البرهان.

غير أنه مما يؤسف له إعراض بعض المسلمين عن هذه الحقائق الربانية، وإنكارهم لهذه المعرفة الفطرية.

فجماهير المتكلمين على اختلاف طوائفهم يقررون أن معرفة الله نظرية، وأنها إنما تدرك بالنظر والاستدلال، ويجعلون الطريق إلى معرفته تعالى النظر، فأوجبه على كل مكلف وجعلوا لهذا النظر طرقاً وأدلة كلامية وفلسفية صعبت على نظائرهم فضلاً عن عامة المسلمين.

وقولهم يتناقض مع القول بفطرية معرفة الله، لأن المعارف الفطرية لا تحتاج إلى نظر واستدلال، وإنما تكون معلومة بالبداهة والفطرة.

إن حديث القرآن الكريم عن هذه المعرفة الفطرية كافٍ شافٍ شامل لحقيقتها وبيان المراد منها.

ولو رجعنا للقرآن الكريم بفهم سلفنا الصالح لوجدنا فيه غنية عن المناهج والمدارس الكلامية والفلسفية التي أشغلت المسلمين بمسائل لا تبني اليقين والإيمان بل تؤسس للشك والحيرة والاضطراب، ومما يؤسف له أن هذه المسائل والدلائل البدعية لا تزال تشغل حيزاً في مناهجنا التعليمية معرضة عن المنهج القرآني الرباني ذلكم الوحي المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على فئات مختلفة من الناس في مناطق متعددة وبواسطة علماء من جامعات أكاديمية مشهورة: (أن

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (٤٥٨/٨)، وشفاء العليل لابن القيم: ص(٥٠٠).

الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة).

وقد سبقهم القرآن العظيم بتقرير هذه الحقيقة التي لا ينازع فيها إلا مكابر!.
والله تعالى أسأل أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همومنا وهاديننا إلى الصراط المستقيم.

كاتبه
سعيد بن علي بن محمد الشهراني

المطلب الأول: الفطرة في لغة العرب

الفطرة في لغة العرب تطلق على معانٍ متعددة تدور حول: الشق، والخلق، والابتداء، والاختراع، والخلق، والقبول. وشواهد هذه المعاني متوافرة في معاجم اللغة العربية^(١)، وكتب غريب القرآن والحديث^(٢).

كما يشهد لبعض معان الفطرة آيات كثيرة في القرآن الكريم. فالفطرة بمعنى الشق، مثل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥].

والفطرة بمعنى الابتداء والاختراع والخلق، مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

وجاءت أيضاً بمعنى القبول في قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]، فقوله: ﴿مُنْقَطِرٌ بِهِ﴾ إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها^(٣).

أما كلمة "فطرة" على وزن "فِعْلَةٌ" فلم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣].

ويذكر المطهري^(٤) إلى أن أحداً لم يستعمل هذه الكلمة قبل ورودها في القرآن، واستدل بحادثة ابن عباس { مع الأعرابيان وفيه: "أنا فطرتها"، وذلك أن ابن عباس وهو حبر الأمة وهو العربي القرشي لم يعرف معنى هذه الكلمة من قبل سماع

(١) انظر: مادة (ف ط ر) في كتاب العين للفراهيدي: (٧/٤١٧-٤١٨)، تهذيب اللغة للأزهري:

(١٣/٣٢٥-٣٣٠)، الصحاح للجوهري: (٢/٧٨١)، لسان العرب: (٥/٥٥-٥٩).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص (٥٧٥)، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير:

(٣/٤٥٧)، غريب الحديث لأبي عبيد: (٣/٢٩٩-٣٠٠).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ص (٥٧٥).

(٤) الفطرة للمطهري: ص (٥).

الأعرابي، فدلّ ذلك على أن هذه الكلمة لم يسبق لها أن استعملت قبل القرآن الكريم، ويمكن الاعتراض عليه بقول عنتر:

وسيفي كالعقيقة وهو كمعي .∴. سلاحي لا أفلّ ولا فطار^(١)



(١) انظر: لسان العرب (٨/٣١٣).

المطلب الثاني: أقوال علماء أهل السنة والجماعة في معنى الفطرة

تعددت أقوال العلماء في بيان معنى الفطرة، وسأجمل ذكر أبرز هذه الأقوال دون ذكر أدلتها ومناقشتها طلباً للاختصار.

القول الأول: أن الفطرة هي الخلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه إذا بلغ مبلغ المعرفة، وهي السلامة من المعرفة والإنكار أو الكفر والإيمان.

وأبرز من نصر هذا القول ابن عبد البر^(١)، وبه قال ابن الأثير^(٢)، وتقي الدين السبكي^(٣)، وغيرهم من العلماء.

القول الثاني: الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها من الحياة والموت والشقاء والسعادة، وكل ما سبق في علم الله مما يصيرون إليه عند البلوغ أو عند العاقبة^(٤).

وممن قال بذلك من السلف: عبدالله بن المبارك^(٥)، والإمام أحمد في إحدى الروايات عنه^(٦).

القول الثالث: بأن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان، وذلك حين أخذ من ذرية آدم الميثاق.

(١) انظر: التمهيد: (٦٨/١٨-٦٩)، وعقيدة الإمام ابن عبد البر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص(٤٢٦-٤٤٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث: (٤٥٧/٣).

(٣) كل مولود يولد على الفطرة، للسبكي: ص(١٦).

(٤) انظر: التمهيد: (٧٨/١٨).

(٥) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد: (٢٢/٢).

(٦) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ص(٤٩٩)، وقد ذكر أن للإمام أحمد ثلاث روايات في الفطرة، لكن هذا القول قد تركه الإمام، انظر: درء التعارض: (٣٨٩/٨)، التمهيد: (٧٦/١٨).

وممن قال به: إسحاق بن راهويه، وصححه الأزهري^(١).

القول الرابع: القول بأن الفطرة هي الميثاق، الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم قبل أن يخرجوا إلى الدنيا، فأقروا له جميعاً بالربوبية.

ونسب هذا القول إلى الأوزاعي، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وغيرهم^(٢).

وقد ذكر ابن عبد البر أن أصحاب هذا القول يفسرون الفطرة بمجموع أمرين: أخذ الميثاق يوم استخراج ذرية آدم من ظهره، ثم إخراجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على معرفة الله والإقرار بربوبيته، وحينئذ يكون هذا عين مذهب السلف، لا قولاً مستقلاً، كما ذكره أثناء عرض الأقوال في الفطرة^(٣).

القول الخامس: وهو أن المراد بالفطرة: الإسلام.

وهذا الذي عليه أكثر الصحابة والتابعين، وغيره من علماء السلف، ومنهم:

معاذ بن جبل، وعمر بن الخطاب، وأبي هريرة، وابن عباس، والقاضي شريح، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، والحسن البصري، والباقر، وقتادة، وابن شهاب، وجعفر الصادق، والأوزاعي، وحماد بن زيد^(٤)، وأحمد بن حنبل، والبخاري^(٥)، وابن جرير، وأبو بكر الخلال، وأصحاب

(١) انظر: التمهيد: (١٨/٨٣)، تهذيب اللغة للأزهري: (١٣/٣٢٨).

(٢) انظر: التمهيد: (١٨/٩٠-٩١)، تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ص (٩٥).

(٣) انظر: التمهيد: (١٨/٩٠-٩٤)، وميثاق الإيمان، د. عيسى السعيد، ص (٣٩)..

(٤) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/١٨٣-١٨٤)، وصحيح البخاري كتاب الجنائز: (١/٤٥٤)، والدرء لابن تيمية: (٨/٣٦٧-٣٧٧)، والتمهيد لابن عبد البر: (١٨/٧٢)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص (١٤-١٥)، والنكت والعيون للهاوردي: (٤/٣١٢).

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه: (١/٤٥٤)، وكتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله: (٤/١٧٩٢)، تفسير ابن جرير: (١٠/١٨٣-١٨٤)، والدرء لابن تيمية: (٨/٣٦٧-٣٧٧)، وأحكام أهل الملل للخلال: ص (١٤-٢٥).

أبي حنيفة، وابن حزم^(١)، والبيهقي^(٢)، وابن تيمية^(٣)، وابن القيم^(٤)،
وابن كثير^(٥)، وابن حجر^(٦)، والشوكاني^(٧)، وغيرهم.

قال ابن عبد البر: خلق الطفل سليماً من الكفر مؤمناً مسلماً، على الميثاق الذي
أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم^(٨).

وهذه الخلقة على الإسلام والتوحيد هي الفطرة بمعناها الشرعي، ولهذا
فسرها أئمة السلف بالإسلام، قال ابن عبد البر: هو المعروف عند عامة السلف من
أهل العلم بالتأويل، وقد أجمعوا في قول الله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ
عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣] على أن قالوا: فطرة الله دين الإسلام... وذكروا عن عكرمة ومجاهد
والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قول الله عز وجل: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣] قالوا: دين الله الإسلام^(٩).

وقال ابن حجر: الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ
الفطرة إلا الإسلام^(١٠).

ولهذا قال البخاري: الفطرة: الإسلام. قال ابن حجر: جزم المصنف بأن

(١) انظر: الإحكام لابن حزم: (١٠٤/٥).

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي: ص (١٠٧).

(٣) انظر: مؤلفاته مثل: درء التعارض: (٣٥٩-٤٦٨/٨)، ومجموع الفتاوى: (٢٤٣-٢٤٩/٤)،
ومجموعة الرسائل الكبرى: (٣٣٣-٣٤٩/٢) وغيرها.

(٤) انظر: مؤلفاته: كشفاء العليل: ص (٤٨٦-٥٢٠)، وأحكام أهل الذمة: (٥٢٣-٦٠٩) وغيرها.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٢٠-٣٢٣/٦).

(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر: (٢٩٤/٣).

(٧) انظر: فتح القدير، للشوكاني: (٢٢٤/٤).

(٨) التمهيد (٧٧/١٨).

(٩) التمهيد (٧٢/١٨).

(١٠) فتح الباري (٢٥٠/٣).

الفطرة الإسلام (١).

وجزم به أيضاً كثير من الأئمة، كالطبري والبيهقي وأبي العباس القرطبي وابن تيمية وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن أبي العز الحنفي وابن حجر والشوكاني وغيرهم (٢).

ولا بدّ من تقرير أنه ليس المراد بقول السلف: ولد المولود على فطرة الإسلام: أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَلَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته.

فنفس فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض (٣).

وذهب ابن تيمية وابن القيم إلى أن المراد بالفطرة على الإسلام خلق الطفل على معرفة الحق وإرادته بالقوة لا بالفعل، فكما يولد وفيه قوة النطق والعقل والفعل والمعرفة والإرادة حتى إذا قدر نطق بالفعل وعقل وفعل وعرف ما يلائمه من الأغذية والأشربة والمنافع وطلبه بمقتضى طبعه إلا لما منع من مرض ونحوه، فإنه كذلك يولد وفيه قوة معرفة الحق وإرادته، ثم تنمو فطرته بنموه حتى يعرف الإسلام ويريده بالفعل، ويطلبه ويؤثره بمقتضى طبعه وجبلته بحيث لو سلم المانع والمعارض وخلي وفطرته لكان بمقتضاها عارفاً بربه، موحداً له محباً له، ولا يحتاج

(١) فتح الباري (٣/٢٤٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/٤٠)، الاعتقاد للبيهقي ص (٨٨)، المفهم للقرطبي (٦/٦٧٦)، درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧١)، أحكام أهل الذمة (٢/٥٣١)، تفسير ابن كثير (٣/٤٣٢)، جامع العلوم والحكم ص (٢١٣)، شرح الطحاوية ص (٨٣)، فتح الباري (٣/٢٤٨)، فتح القدير للشوكاني (٤/٢٢٤).

(٣) انظر: درء التعارض: (٨/٣٨٣-٣٨٤، ٤٦٠-٤٦١).

في معرفة ربه ومحبه لسبب من خارج فطرته إلا في التذكير بما أودعه الله فيها من الحق أو تفصيله وتقويته وتكميله.

قال ابن القيم: المعرفة والمحبة لا يشترط فيهما وجود شخص منفصل وإن كان وجوده قد يذكر ويحرك، كما إذا خوطب الجائع بوصف الطعام والمغتمل بوصف النساء، فإن هذا مما يذكر ويحرك لكن لا يشترط ذلك لوجود الشهوة، وكذلك الأسباب الخارجة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق والذل له ومحبه وإن كان ذلك مذكراً ومحركاً ومزيلاً للمعارض المانع^(١).

ومما يؤكد أن الله تعالى فطر عباده على توحيده ومعرفته قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن القيم: هذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكر لهم بما هو مركز في فطرهم من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله والخضوع له والإخلاص له، ومحبة شرعه الذي هو العدل والمحض، وإيثاره على ما سواه^(٢).

وستتضح أدلة رجحان هذا القول في بيان معنى الفطرة من خلال الأدلة التالية.

(١) أحكام أهل الذمة (٢/٦٠٧)، وانظر: درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٨٣).

(٢) شفاء العليل ص (٤٩٧)، وميثاق الإيمان ص (٥٢-٥٣).

المطلب الثالث: حقيقة الفطرة من خلال الأدلة القرآنية

تقرر كثير من الأدلة الشرعية حقيقة معنى الفطرة وسأذكر أبرز وأجلى هذه الأدلة مركزاً على أدلة القرآن الكريم:

أولاً:

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وهذه الآية الكريمة تبين بكل مفرداتها على أن مقتضى الفطرة التي أمر الله تعالى بإقامة الوجه لها ولزومها هي الدين الحنيف الإسلام، وأن خلق الناس على هذا المقتضى سنة مطردة لا تتبدل ولا تتغير.

وسأذكر فيما يلي تفسير مفردات هذه الآية الكريمة.

*قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ قال ابن كثير - في تفسير هذه الآية: «فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملّة إبراهيم الذي هداه لها وكملها له غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»^(١).

*قوله: ﴿لِلدِّينِ﴾: المقصود به دينٌ معيّن فآل فيه للعهد، وهو دين الإسلام^(٢).

*قوله: ﴿حَنِيفاً﴾: الحنف هو الميل، «وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلاً ومنقطعاً عن الشرك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]»

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٢٠).

(٢) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٢١/ ٨٩).

()

ومن الآيات التي تشهد أن الحنيفية هي الإسلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضًا قوله ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة» (١).

*قوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ أي: إن إقامة الوجه للدين حنيفًا هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك مأمور باتباعه إما صراحةً وإما تلميحًا، لأنها جاءت مضافة إلى الله إضافة مدح لا إضافة ذم، وفي هذا ما فيه من تشریفها وتوكيد تمامها وكمالها وتمام الدين المعبر بها عنه وكماله، وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام (٢).

وقد جاء التنزيل بنحو هذا في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، قال مجاهد: «فطرة الله» (٣).

*قوله: ﴿فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: بيان لمعنى الإضافة في قوله: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾، وتصريح بأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة، وكون الإسلام هو الفطرة وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية (٤).

(١) المصدر السابق: (١٩/٢١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤٥، ٢٤٨٩٩، ٢٦٠٠٤)، والطبراني في الكبير برقم (٧٧١٥، ٧٨٦٨، ٧٨٨٣).

(٣) انظر: الدرء لابن تيمية: (٣٧٢/٨)، وفتح الباري لابن حجر: (٢٩٣/٣)، وتفسير القرطبي: (٢٤/١٤)، والمحزر الوجيز لابن عطية: (٤٥٣/١١)، ومنهج الاستدلال عثمان حسن: (٢٠٠/١).

(٤) انظر: تفسير البغوي: (١٢١/١).

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: (٩٠/٢١)، والمعرفة في الإسلام للقرني: ص (٢٣٢-٢٣٣).

وقد ذكر ابن عبد البر إجماع أهل التأويل من السلف على أن المراد بـ ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ في الآية دين الإسلام^(١).

* قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: ذكر ابن كثير في تفسيره قولين هما:

أنه خبر بمعنى الطلب، ومعناه: لا تبدلوا خلق الله بإفساد الفطرة، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

أنه خبر على بابه، ومعناه: أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلبة المستقيمة، فلا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك^(٢).

ولهذا قال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ أي لدين الله^(٣).

وقال البخاري: «قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾: لدين الله، ﴿خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾: دين الأولين. والفطرة الإسلام»^(٤).

ولا تعارض بين القول بأن اللام في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ للنفي أو للنهي، فالنفي صحيح فلا يولد مولود إلا وهو على الفطرة لا يستطيع أحد أن يبدل ذلك، فيجعل بعضهم يولد على الفطرة، وبعضهم يولد على غير الفطرة، والنهي أيضاً صحيح فمعناه: لا تُغَيِّرُوا ولا تبدلوا دين الله وفطرته التي فطر الله الناس عليها.

* قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينِ الْقَيْمِ﴾: اسم إشارة هنا يدل على زيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه كالإشارة في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، والقيّم يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر: (٧٢ / ١٨)، وعقيدة الإمام ابن عبد البر في التوحيد والإيمان، للغصن: ص (٤٢٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (٣٢٠ / ٦).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير: (١٨٣ / ١٠ - ١٨٤)، وتفسير ابن كثير: (٣٢٠ / ٦).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير / سورة الروم، باب لا تبدل لخلق الله.

والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثه^(١).

-وبهذا يظهر أن الفطرة في الآية تقتضي التوحيد، ولو أن الله قد خلق الناس خلقة قد تقتضي التوحيد، وقد لا تقتضيه لم يأمر بلزوم مقتضاها بإطلاق. فدل على أن الفطرة لا بد أن تقتضي التوحيد، وأن ذلك سنة لا يمكن أن تتبدل، وهذا مطابق للعموم في حديث الفطرة في قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة».

ولذا أخبر تعالى أن الاستقامة على الدين الحنيف الذي هو مقتضى الفطرة هو الدين القيم. فلا يكون تحقيق التوحيد والدين القيم إلا بتحقيق مقتضى الفطرة^(٢).

ثانياً:

آية الإشهاد وهي قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

وهذه الآية آية مشككة كما قال القرطبي^(٣) وأبو المظفر السمعاني^(٤) والكلام في تفسيرها مرتبط بالروايات الواردة في الميثاق من حيث حقيقته وأقوال أهل العلم فيه^(٥).

وقد اختلف أهل العلم في حقيقة استخراج ذرية آدم من صلبه إلى عدة أقوال:

(١) انظر: تفسير ابن جرير: (١٠/١٨٤)، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي: ص (١٨).

(٢) المعرفة في الإسلام للقرني: ص (٢٣٣).

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٧/٣١٤).

(٤) انظر: تفسير أبي المظفر: سورة الأعراف: ٤٠٥.

(٥) انظر للتوسع في تخريج هذه الروايات ونقدها: أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، لعبدالعزیز العثیم. وفطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لأحمد سعد حمدان: ص (٣٤-١٣٥).

*القول الأول:

أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام مسح على ظهره، فأخرج منه ذريته كأمثال الذر، فئة بيضاء نقية، وأخرى سوداء كالحمم، وهذا الإخراج كان لجميع الذرية، وجعل لهم عقولاً يعقلون بها ما يعرض عليهم، ثم كلمهم الباري تعالى عياناً، وأخذ عليهم العهد والميثاق بأنه ربهم المعبود، الذي لا إله غيره، وأنهم عبيده المربوبون، فأقروا بذلك، ووقعت الشهادة عليهم بذلك، قال تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢]. حيث كان إقرارهم له تعالى بلسان المقال.

وهذا هو مذهب جمهور الصحابة والتابعين وجمهور المفسرين، وعامة أهل الأثر والحديث، والصوفية.

وممن قال بذلك من الصحابة رضي الله عنهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وأبو سريحة الغفاري، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وذو اللحية الكلابي، وعمران بن حصين، وأم المؤمنين عائشة، وأنس بن مالك، وسراقة بن جعشم، وأبو موسى الأشعري، وعبادة بن الصامت، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبدالله، وأبو ذر الغفاري، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبو عبدالله -رجل من الأنصار-، وعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء، وعمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وأبو أمامة الباهلي، وأبو الطفيل، وعبدالرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- .

وأما من بعدهم فمنهم: محمد بن كعب، والضحاك بن مزاحم، والحسن البصري، وقتادة، وسعيد بن جبير والسدي، والكلبي، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، والطبري، والقرطبي، وفاطمة بنت الحسين، وأبو جعفر الباقر، وأبو حنيفة، والطحاوي، وابن الأنباري، وأبو جعفر النحاس، وابن الجوزي، وابن رشد، والألوسي، والشوكاني، والقنوجي، وملا علي قاري، والمغنيساوي، والخازن،

وابن المنير، والثعالبي، وابن الوزير، وغيرهم كثير^(١) -رحمهم الله تعالى
أجمعين- .

وأدلة هذا القول كثيرة جداً، حتى قال عنها ابن القيم - « الآثار في إخراج
الذرية من ظهر آدم، وحصولهم في القبضتين، كثيرة لا سبيل إلى ردها وإنكارها،
ويكفي وصولها إلى التابعين، فكيف بالصحابة؟ ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين
»^(٢).

وقد حكم بعض أهل العلم على هذه الروايات بالتواتر ومنهم:
المقبلي القائل: « ولا يبعد دعوى التواتر المعنوي في الأحاديث والروايات
الواردة في ذلك »^(٣).

وقال ابن عطية: « وتواترت الأحاديث في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ »^(٤).

وقال الألباني: « وجملة القول أن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى »^(٥).

وقال ابن رشد: غير مستنكر في لطيف قدرة الله تعالى أن يجيئهم حينئذٍ،
ويجعل لهم مع كونهم أمثال الذر عقولاً يعقلون بها خطابه، ويعلمون بها أنه ربهم
وخالقهم، ويطلق ألسنتهم بالإقرار له بذلك^(٦).

ومن الأدلة التي استشهدوا بها في إثبات وقوع هذا الاستخراج إضافة إلى
الأحاديث الواردة في بيان معنى الآية ما يلي:

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي: (٤٦/١٥)، وروح المعاني للأوسى: (١٠٣/٩)، وفتح البيان
للقنوجي: (٧٠/٥)، والتمهيد لابن عبد البر: (٧٢/١٨)، وشفاء العليل لابن القيم: ص (٣٤-
٣٥)، وفطرية المعرفة لحمدان: ص (١٠٥-١٠٦)، والسلسلة الصحيحة للألباني: (١٥٩/٤).

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم: (١٥٩/٢-١٦٠).

(٣) فتح البيان للقنوجي: (٧١/٥).

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية: (١٣٤/٦).

(٥) السلسلة الصحيحة للألباني: (١٦٢/٤).

(٦) انظر: فتاوى ابن رشد: (٦٦١/١).

(١) قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

قال مجاهد: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ أي في ظهر آدم عليه السلام^(١). وقال ابن كثير: « وقيل المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذر من صلب آدم عليه السلام »^(٢).

(٢) قوله تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

قال أبي بن كعب ومجاهد في تفسير هذه الآية: عهده الذي أخذه من بني آدم في ظهر آدم ولم يفوا به^(٣).

(٣) قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١١].

قال القرطبي: « وقيل المعنى: خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حيث أخذنا عليكم الميثاق هذا قول مجاهد رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال "ثم ذكر قول مجاهد" »^(٤).

وقال بهذا أيضاً: قتادة، والربيع، والضحاك^(٥).

(٤) قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فإنهم فسروا إسلام الخلق كلهم بذلك، وقالوا: إن الله تعالى لما قال لهم:

(١) انظر: جامع البيان للطبري: (١٠/٢٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٦/٣٨٣).

(٣) انظر: جامع البيان للطبري: (٦/١٤).

(٤) جامع أحكام القرآن للقرطبي: (٧/١٦٩). وانظر: معاني القرآن: (٣/١٣).

(٥) العواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/٢٦٩).

"ألست بربكم" قالوا كلهم "بلى" فأما أهل السعادة، فقالوا عن معرفة له طوعاً،
وأما أهل الشقاوة فقالوه كرهاً^(١).

*القول الثاني:

هو ما ذهب إليه بعض المفسرين ونصره -منهم خاصة- المتسبون إلى التفسير
بالرأي، وهو أن لا إخراج، ولا قول، ولا شهادة بالفعل، وإنما ذلك كله على سبيل
المجاز، أو التمثيل، فيكون المراد بأخذ الميثاق أحد أمرين:

أ) ما فطرهم الله تعالى عليه من التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]. وكما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد
على الفطرة...» الحديث.

وقوله ﷺ: «خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم
عن دينهم».

وقال بهذا القول طائفة من علماء السلف، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن
القيم، وابن كثير، وابن أبي العز الحنفي، والسعدي، وغيرهم -رحمهم الله تعالى
أجمعين-.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ~ : «وهذا الأخذ المعلوم المشهود الذي لا
ريب فيه، هو أخذ المني من أصلاب الآباء ونزوله في أرحام الأمهات... فهو
يقول: اذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين
بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم، فهذا الإقرار حجة الله عليهم يوم
القيامة، فهو يذكر أخذه لهم، وإشهاده إيّاهم على أنفسهم، إذ كان سبحانه خلق
فسوى، وقدّر فهدى.

فالأخذ يتضمن خلقهم، والإشهاد يتضمن هداه لهم إلى هذا الإقرار»^(٢).

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر: (١٨/٨٣)، والعواصم والقواصم لابن الوزير: (٧/٢٦٩).

(٢) الدرء لابن تيمية: (٨/٤٨٧). وانظر: جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية: (١/١١)، وأحكام

ب) أن المراد من أخذ الميثاق الأخذ من ظهور بني آدم على الترتيب الذي مضت به السنة، من لدن آدم إلى فناء العالم، ونصب الأدلة لهم في أنفسهم أو في الكون.

ومعنى ذلك أن الله ﷻ نصب هذه الدلائل، وأظهرها للعقول، لئلا يقولوا إنما أشركنا على سبيل التقليد لأبائنا، لأن نصب أدلة التوحيد قائم معهم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه، والإقبال على تقليد الآباء في الشرك.

قال الرازي حاكياً هذا القول: «أخرج الذرية - وهم الأولاد - من أصلاب آبائهم وذلك الإخراج: بأنهم كانوا نطفة، فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات، وجعلها علقة، ثم مضغة ثم جعلها بشراً سوياً، وخلقاً كاملاً، ثم أشهدهم على أنفسهم، بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب خلقه، وغرائب صنعه، فبالإشهاد صاروا كأنهم قالوا: بلى، وإن لم يكن هناك قول باللسان، ولذلك نظائر منها:

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]^(١). وهذا النوع من المجاز والاستعارة مشهور في كلام العرب. فحين شهدت بهذه الأدلة عقولهم وبصائرهم صاروا بمنزلة من قيل لهم: ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى. وهذه الشهادة منهم بالحال لا بالمقال. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ الآية [التوبة: ١٧]. وعلى هذا القول يكون معنى الآية الكريمة: وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، ويشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من العقل الذي يكون به الفهم والتكليف، الذي به يترتب على صاحبه الثواب والعقاب يوم القيامة^(٢).

أهل الذمة لابن القيم: (٥٢٧/٢)، وتفسير ابن كثير: (٥٠٦/٣)، وشرح العقيدة الطحاوية لابن

أبي العز: ص (٣٠٢)، وتفسير ابن سعدي: (١٧٠/٢).

(١) التفسير الكبير للرازي: (٥٠/١٥).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: (٣١٤/٤)، والنكت للماوردي: (٢٧٨/٢)، والروح

وهذا القول هو مذهب المعتزلة كالزنجشيري والقاضي عبد الجبار، ومن وافقهم من المفسرين كأبي السعود والزجاج وأبي حيان والنسفي وغيرهم.
وكلا الأمرين - الفطرة أو نصب الأدلة - يشتركان في إنكار والإخراج من ظهر آدم والإشهاد بلسان المقال.

وقد انتقد الشيخ الألباني ابن كثير وابن القيم في قولهما بهذا القول ووصفهما بأنهما شابها المعطلة والمبتدعة في تأويل هذه الآية، وردّهم للأحاديث الواردة في الميثاق^(١).

ويمكن الجواب عن كلام الشيخ الألباني بأجوبة منها:

(١) أن ابن القيم وابن كثير لم يردا الحديث، بل ذكروا عدم صحته بنقد سنده ولم يخرجوا في ذلك عما قرره علماء الحديث في منهج النقد وعدم ثبوت الحديث كاف في رده. فهو لم يصح عندهما ومثل هذا لا يقال أنه رد للحديث.

(٢) أنهما لم يؤولا الآية تأويلاً لا تحتمله وإنما ذكروا معنى تحتمله الآية.

(٣) ابن القيم وابن كثير لم ينفردا بهذا الفهم وإنما قد سبقهما غيرهما ومن أشهرهم شيخ الإسلام ابن تيمية ~ والذي قد تقدم نقل بعض كلامه في الآية. ولعل الشيخ الألباني لم يقف عليه.

(٤) أن موافقة بعض المبتدعة في بعض آرائهم لا يعني موافقتهم في بدعهم إذ أن أصل عقائدهم عقائد إسلامية فليس غريباً أن تكون هناك موافقات بين ما ذهبوا إليه وما ذهب إليه علماء السلف، إذ الالتقاء في الجزئيات لا يعني الاتفاق في الكلّيات، كما أنه ليس كل ما يقول به المبتدعة يلزمنا أن نخالفه إلا إذا اتضح بطلانه

ابن القيم: (٢/٥٤٩-٥٥١)، وتفسير أبي المظفر السمعاني: ص(٤١٠)، وتفسير السعدي: (٢/١٧٠)، وتفسير القاسمي: (٧/٢٨٩٧)، والكشاف للزنجشيري: (٢/١٧٧)، وروح المعاني للألوسي: (٩/١٠٢)، والبحر المحيط لأبي حيان: (٤/٤٢٠)، وتفسير النسفي: (٢/١٥٩)، وتفسير أبي السعود: (٣/٢٩٠)، والبسيط للواحدي: (٣/٩١٥-٩١٧)، وغيرها.

(١) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤/١٥٩-١٦٢).

بالدليل^(١).

وبتأمل أقوال العلماء في آية الميثاق سواء الذين قالوا بإخراج الذرية وتحقيق الإشهاد بلسان المقال أو الذين أنكروا ذلك وقالوا: إنه بلسان الحال، نجد أنهم متفقون على دلالة الآية على فطرية التوحيد.

ووجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وأن المعرفة به ضرورة أن الله تعالى قد أخبر بأنه قد أشهد جميع بني آدم على أنفسهم أنه هو ربهم، وأنهم قد أقروا وشهدوا جميعاً على أنفسهم بذلك، كما أخبر تعالى أن هذا الإشهاد حجة على الناس جميعاً، فلا يمكن لأحد يوم القيامة أن يعتذر بالجهل بالتوحيد، وأنه لم تبلغه فيه حجة، لأن الحجة فيه قد قامت على كل أحد بذلك الإشهاد، وأنه لا يمكن لأحد تبعاً لذلك أن يعتذر إذا كان قد وقع في الشرك بمتابعة الآباء عليه، لأن عنده من العلم بالتوحيد وبطلان ما عليه الآباء من الشرك ما يدفع به ذلك، بحيث لا يقع في الشرك إلا بإرادته واختياره، مع العلم ببطلان الشرك، لا لمجرد متابعة الآباء عليه.

ويلزم من ذلك أن يكون العلم بتوحيد الله تعالى من المعارف الضرورية التي لا يحتاج أحد أن يتعلمها، بل يكون ذلك الإشهاد على التوحيد وإقراره به كافيًا في العلم به وعدم الوقوع في الشرك^(٢).

وفي بيان وجه دلالة الآية على فطرية التوحيد وكونه من العلوم الضرورية يقول الإمام ابن تيمية: «... هذا الإشهاد من لوازم الإنسان، فكل إنسان قد جعله الله مقرراً بربوبيته، شاهداً على نفسه بأنه مخلوق والله خالقه، ولهذا جميع بني آدم مقرون بهذا شاهدون به على أنفسهم، وهذا أمر ضروري لهم لا ينفك عنه مخلوق، وهذا مما خلقوا عليه وجبلوا عليه، وجعل علماً ضرورياً لهم لا يمكن أحداً جحده.

ثم قال بعد ذلك: (أن تقولوا) أي: كراهة أن تقولوا، ولئلا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا

(١) هذه الأجوبة منقولة من: فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها، لشيخنا أ.د/ أحمد سعد حمدان: ص(١٣٧-١٣٨).

(٢) المعرفة في الإسلام للقرني: ص(٢٣٦).

عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿عَنِ الْإِقْرَارِ لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَى أَنْفُسِنَا بِالْعِبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخُلْ مِنْهَا بَشَرٌ قَطْ.

... وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^ط أَفْتَهَلِكُنَّا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾ وهم آباؤنا المشركون، وتعاقبنا بذنوب غيرنا؟ وذلك لأنه لو قدر أنهم لم يكونوا عارفين بأن الله ربهم، ووجدوا آباءهم مشركين وهم ذرية من بعدهم ... قالوا: نحن معذورون، وآباؤنا هم الذين أشركوا ونحن كنا ذرية لهم بعدهم، اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة، ولم يكن عندنا ما يبين خطأهم.

فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده هو ربهم، كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك، وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية»^(١).

ثَانِيًا:

ما جاء في جواب الرسل للكفار لما قالوا لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿١٠٠﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٠١﴾ [إبراهيم: ٩-١٠].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن قول الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ يحتمل أمرين:

الأول: أفي وجوده شك؟

الثاني: أفي تفرده باستحقاق العبادة دون غيره شك؟^(٢)

ورغم أن السياق القرآني يدل على الثاني - لأن الشك متوجه فيه لمضمون

(١) در التعارض، لابن تيمية: (٨/٤٨٨-٤٩١).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: (٢/٥٧٧).

دعوة الرسل، ومعلوم أن مضمون دعوتهم توحيد العبادة- إلا أن اللفظ يتناول الشك في الله تعالى من كل وجه، بما في ذلك الشك في وجوده، والعبرة بعموم اللفظ كما هو معروف^(١).

فيكون الرسل قد احتجوا على الكفار بحجتين:

الأولى: الفطرة، فإن قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾: استفهام تقرير مفاده النفي^(٢)، أي أن الله تعالى فوق الشك، وأن الشك في إلهيته مما تنكره الفطرة، وهذه الحجة داخلية، نابغة من نفس الإنسان.

والثانية: العقل، وذلك في قولهم: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإن هذا استدلال بالخلق على الخالق، وهذه الحجة خارجية، مأخوذة من دلالة الأثر على المؤثر.

رابعاً:

ما ورد من ذكر استيقاظ الفطرة عند الشدائد، وظهور أثرها، وبروز مقتضاها على النفوس، من اللجوء بالدعاء إلى الله تعالى، والتوجه إليه دون غيره بالاستغاثة، فهي تُقبل عليه إقبال العارف بمن يملك نجاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]، وما في معناها من الآيات^(٣) التي تنبه إلى عودة الناس عند الشدائد إلى مقتضى الفطرة التي فطروا عليها، وهذا من أعظم الشواهد الحسية على وجود المعرفة الفطرية واستقرارها في النفس.

خامساً:

استفهامات التقرير بالربوبية، نحو قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

(١) انظر: الرسالة للشافعي: ص (٥١) فقرة (١٧٣) وما بعدها.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣٣٩ / ١٦).

(٣) انظر مثلاً: (الأنعام: ٤٠-٤١)، و(يونس: ١٢-٢٢)، و(الإسراء: ٦٧)، و(العنكبوت: ٦٥)، و(الروم: ٣٣)، و(فصلت: ٥١).

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦﴾ أَمْ نَجْعَلُ
 الْأَرْضَ قَرَارًا وَنَجْعَلُ خِلَالَهَا أَنْهَرًا وَنَجْعَلُ لَهَا رَوَاسِيَ وَنَجْعَلُ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
 حَاجِزًا أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ أَمْ نَجْعَلُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
 وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ
 ﴿٦﴾ أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِنَا أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦﴾ أَمْ نَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
 وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٦﴾ [الزمر: ٦٠-٦٤].

فهذه الآيات وما شابهها تتضمن تقريراً للناس بأمر تعرفه فطرهم، وهو ما
 غرسه الله فيها من معرفته^(١).

سادساً:

وقد دلّت السنة النبوية على ما دلّ عليه القرآن، ففي الصحيحين عن أبي
 هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه
 يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من
 جدعاء». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿٦﴾ الآية^(١).

وروى مسلم بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ قال - فيما يرويه عن
 ربه أنه قال - : «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم
 عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به
 سلطاناً»^(١).

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي: ص (٢٥-٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز (١/٤٥٦) برقم (١٢٩٢). ومسلم، كتاب القدر، باب كل
 مولود يولد على الفطرة (٤/١٦٢٤) برقم (٢٦٥٨).

(٣) الصحيح، كتاب الجنة ... ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار:
 (٤/١٧٤١) برقم (٢٨٦٥).

المطلب الرابع: أسباب تَخْيِيرِ الْفِطْرَةِ

الأصل في الإنسان هو التوحيد ومن أنكر وجحد الله تعالى فإنها أنكره لفساد فطرته بطارئ ما، حال بينها وبين مقتضاها، وقد جاء التصريح في القرآن بأن الكفار في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، وإن لم يذعنوا له، كما قال تعالى في شأن فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَتُؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال في أهل النار: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال عن كفار قريش: ﴿فَأِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

بل إن نفس كلمة "كفر" مأخوذة من الستر والتغطية، وهذا أصل معناها في اللغة^(١)، وأطلقت على الكافر؛ لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحُجُبِ الشبهات والشهوات، فإذا زالت هذه الحجب بالحجج والبيانات ظهرت مقتضيات الفطرة، كما حصل لسحرة فرعون، حيث قالوا: ﴿لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢]، فكان أسلوب القرآن في الاستدلال بالخلق على الخالق كثيراً ما يأتي في صورة التذكير، لا في صورة إنشاء معرفة جديدة لم تكن مغروزة في النفس، وهذا هو شأن المعارف الأولية.

والفطرة على الحق لا يمكن تبديلها، ولكن يمكن تغييرها بأسباب تطراً على الخلقة حتى تعوقها أو تمنعها من الإذعان لما تعرفه من الحق، وهي كثيرة أهمها ثلاثة أسباب:

١ - الغفلة والنسيان:

وقد دلت النصوص على أن الغفلة والنسيان من أهم ما يطرأ على الفطرة حتى يترك العبد مقتضى الميثاق الأول والآخِر.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: (١٩١/٥).

بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢]،
 وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: ١١٥]، وقال:
 ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ
 فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا
 كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، روى مسلم
 بسنده عن أبي هريرة قال: (قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ ..
 الحديث، إلى قوله: فيلقى العبد، فيقول: أي فل، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك،
 وأسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. قال: فيقول: أظننت
 أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني) (١)، قال الترمذي: (ومعنى
 قوله: اليوم أنساك؛ يقول: اليوم أتركك في العذاب. هكذا فسروه) (٢).

٢- التربية على العقائد الباطلة وتقليد الأسلاف في الشرك والضلال.

وقد حكى الله عن المشركين أن يتبعون آثار آبائهم، وأنهم متمسكون بدينهم
 وعاداتهم بلا حجة ولا برهان.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَيْقَلَ لَهُمْ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ
 آبَاءُؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا
 مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ
 ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَاءٌ آبَاءُهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزخرف: ٦٩]، ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾
 [الصفات: ٦٩-٧٠]؛ أي يسارعون في تقليد آبائهم، واتباع آثارهم وضلالاتهم،
 والاستمساك بدينهم وعاداتهم بلا حجة من كتاب أو إشارة من علم إلا اتباع
 أعوائهم، وإلْف باطلهم (٣).

٣- اجتيال الشياطين.

(١) صحيح مسلم: كتاب الزهد، ح (٥٢٧٠).

(٢) جامع الترمذي: صفة القيامة، ح (٢٣٥٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨٨/١٥)، تفسير ابن كثير (٤/١١).

قال تعالى: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَبْرِيئُكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّآ جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهن عن دينهن، وحرمت عليهن ما أحللت لهم، وأمرتهن أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) ^(١).

والاجتيال هو الذهاب بالشيء وسوقه وإزالتة عن مكانه وتحويله عن قصده ^(٢)، فالشيطان يجول بالعبد في مسالك الضلالة.

فاجتيال الشياطين وإضلالهم، والتربية على العقائد الباطلة، وتقليد الأسلاف في الشرك والضلال، والغفلة عن الحق ونسيانه كل ذلك وإن كان لا يبدل أثر الميثاق في الفطرة إلا أنه يغشاه ويغيره؛ لأن الأصل هو التوحيد وبقاء الفطرة على سلامتها ^(٣).

أما إنكار بعض المتكلمين والنظار، أو كثير منهم لدلالة الفطرة، فإن أول من عُرف به في الإسلام هم أهل الكلام، الذي اتفق السلف على ذمه وتضليل أهله، ومع ذلك فإن إنكارهم لها لا يعني أبداً انتفاءها لديهم؛ فإن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه، وقيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به، كما أن وجود الشيء في الإنسان غير علم الإنسان به، ومثال ذلك: صفات بدنه؛ فإن منها ما لا يراه مطلقاً، ومنها ما لا يراه

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٥٢٤)، النهاية لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٣) انظر: ميثاق الإيمان، د. عيسى السعدي، ص (٧٠-٧٢).

إلا إذا تعمد، ومنها ما لا يراه لمانع في بصره، فكذلك صفات نفسه^(١).

ويذكر ابن تيمية ~ أن مما يبين ذلك أن الأفعال الاختيارية لا تُتصوّر إلا بإرادة تقوم بالفاعل، ويمتنع أن يفعلها وهو غير ناوٍ لها يريد، كالصلاة والصيام والحج والوضوء، ومع ذلك نجد كثيراً من العلماء، فضلاً عن العامة، يستدعون النية بألفاظ يتكلفونها، ويشكون في وجودها مرة بعد مرة، حتى يخرجوا إلى ضرب من الوسوسة يشبه الجنون، وكذلك حب الله تعالى في قلب كل مؤمن، لا يندفع ذلك حتى يزول الإيمان بالكلية، ومع هذا فكثير من أهل الكلام أنكروا محبة الله، وقالوا: يمتنع أن يكون مُحبّاً، أو محبوباً، وجعلوا هذا من أصول الدين، فكذلك أنكروها، وقالوا: لا تحصل إلا بالنظر، كما قالوا في المحبة، ثم قد يكون ذلك الإنكار سبباً لامتناع معرفة ذلك في نفوسهم؛ فإن الفطرة قد تفسد وتزول، كما أنها قد تكون موجودة ولا ترى^(٢).

وقد اعتذر بعض العلماء عن المتكلمين في موقفهم هذا من الفطرة؛ بأنهم إنما سلكوا طريق النظر مبالغة في تقرير الربوبية، وقطعاً لأطماع الملاحدة^(٣).

وظاهر أن هذا الاعتذار إنما هو في حق من أقرّ منهم بكفاية المعرفة الفطرية، أما من أنكركفايتها فلا يصلح هذا الاعتذار له.

والمتكلمون مع تعويلهم التام على النظر العقلي في إثبات الربوبية لم يستطيعوا تجاهل شهادة الفطرة بها كلية، فتجد في كلام بعض أئمتهم من الاعتراف بها وتقرير حجيتها ما يخالف موقفهم العام منها.

فهذا الراغب الأصفهاني يقول: «معرفة الله تعالى العامية - أي الإجمالية - مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول، وأن له فاعلاً فعله، ونقله من

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦ / ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٦ / ٣٤١-٣٤٤).

(٣) ذكر هذا القاسمي عن القزويني كما في دلائل التوحيد: ص(٢٥).

الأحوال المختلفة»^(١).

وهذا الشهرستاني يصرح بشهادة الفطرة على وجود الله تعالى، ويفضل دلالتها على دلالة الحدوث والإمكان، فيقول:

« ما شهد به الحدوث، أو دلّ عليه الإمكان بعد تقديم المقدمات، دون ما شهدت به الفطرة الإنسانية من احتياج في ذاته إلى مدبر هو منتهى الحاجات، فيُربغ إليه ولا يرغب عنه، ويُفزع إليه في الشدايد والمهفات؛ فإن احتياج نفسه أوضح له من احتياج الممكن الخارج إلى الواجب، والحادث إلى المحدث»^(٢).

وهذا الفخر الرازي - أكثر المتكلمين إغراقاً في المعقولات - يذكر في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ وجوه دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، فيذكر لطمة الصبي، وما قال بعض العقلاء، من أنها تدلّ على وجود الصانع؛ لأن الصبي يصيح سائلاً عن ضربه، فدلّ على أنه مفطور على أن كل حادث لا بدّ له من محدث، فإذا شهدت الفطرة بهذا فشهادتها بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل أولى.

ثم ذكر دلالة هذه اللطمة على التكليف ووجوب الجزاء ووجود الرسول.

وذكر ثانياً شهادة الفطرة باستحالة حدوث دار منقوشة متقنة البناء محكمة التركيب، إلا بوجود نقاش عالم، وبانٍ حكيم، فمن باب أولى أن تشهد الفطرة بافتقار العالم إلى الفاعل المختار الحكيم، ثم ذكر ظهور مقتضى الفطرة عند الشدائد، وغير ذلك مما جعله وجوهاً لشهادة الفطرة بوجود الله تعالى^(٣).

بل وهذا الفيلسوف ابن رشد يقول بعد أن قرر دليلي الاختراع والعناية من القرآن على وجود الله تعالى: « فهذه الطريق هي الصراط المستقيم، التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده، ونبههم عليه بما جعل في فطرتهم من إدراك هذا المعنى، وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: ص (١٩٩).

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام: ص (١٢٥).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب: (٩٣-٩١/١٩).

أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴿١﴾

وقد نقل القاسمي عن القزويني أنه أقر بالمعرفة الفطرية، وأن أهل الكلام يعلمون أن شهادة الفطرة أقرب إلى الخلق، وأسرع تعقلاً من دلالة الإمكان والحدوث^(١).



(١) مناهج الأدلة: ص (٦٢).

(٢) انظر: دلائل التوحيد: ص (٢٤-٢٥).

المطلب الخامس:

فطرية التدين في الدراسات الحديثة

وتؤكد الدراسات الحديثة هذه المعرفة الفطرية، فقد توصل الباحثون الغربيون إلى وجود عقيدة الخالق العظيم عند سائر الأمم والشعوب في القديم والحديث، وأن وثنية تلك الأمم ما هي إلا أمر طارئ على تلك العقيدة.

فقد وجد هؤلاء الباحثون عقيدة الإقرار بخالق عظيم موجودة عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا، ووجدوها عند الأجناس الآرية القديمة وعند الساميين قبل الإسلام، وعند قبائل البوشمان في جنوب أفريقيا، وعند الأقزام المنتشرين في أواسط أفريقيا الاستوائية وهم على درجة كبيرة من التخلف والهمجية ويعتقدون بوجود كائن أعلا يدعى "كانج" بمعنى السيد، ويسمى أيضاً "كوبة" كالكانج تنج" بمعنى حامي الموجودات وهو عندهم يسكن السماء ولا يرى وقادر على كل شيء، وعند قبائل "الهوتتوت" الإفريقية ويسمونه "أبا الآباء"، وعند قبائل البانتو والهنود الحمر في الشمال الغربي للمحيط الهادي وفي أمريكا الجنوبية، وقد توصل هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة -الإله الأعظم- توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية^(١).

ويقول ماكس مولر في كتابه "أصل الدين وارتقاؤه" من خلال «النصوص الدينية السنسكريتية، وهي أبعد الديانات عهداً وأقدمها تاريخاً بأن الإنسان أول ما عبد عبد الخالق -جل وعلا- على صفته غير المحدودة، وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به في نفسه»^(٢).

لقد خلق الله النفس البشرية على مقتضى هذه الضرورة النفسية، بحيث لا يمكن أن تطمئن إلا بمعرفة الله ومحبهه والتقرب إليه، وهذا دليل من واقع النفس

(١) انظر: الدين، لدراز: ص(١٠٧-١٠٨)، والفطرة ووظائفها، لفرج: ص(١٤٢-١٤٧).

(٢) مجلة الأزهر، الجزء (٧)، المجلد (٩)، موضوع: العالم كله يتلمس دين الفطرة، لمحمد وجدي: ص(٤٣٤).

البشرية يمكن لكل إنسان أن يدركه، ولهذا كان الأصل في كل إنسان وفي كل مجتمع هو السعي في طلب الطمأنينة الدينية تحت أي ظرف وفي كل زمان ومكان.

وقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبها فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة »^(١).

وتطالعنا حديثاً بعض الأبحاث الطبية التجريبية على مخ الإنسان لتؤكد وجود مناطق في المخ هي بمثابة مراكز للإيمان، فقبل الثورة في مجال العلوم التجريبية وتوفر الأدوات اللازمة حديثاً لم يكن الإنسان على معرفة بألية الوظائف العقلية العليا التي تميز الإنسان وتحديد مواقعها بالمخ، وشيئاً فشيئاً اكتشفت المناطق المتعلقة بالحواس والكلام والحركة، وبدأت تتضح معالم المنظومة العاطفية ومنظومة الأنشطة اللاإرادية والأساس الكيميائي والكهربي للنشاط العصبي، وأصبح في الإمكان تسجيل كهربية المخ من الخارج لتمييز مختلف الأنشطة الذهنية والتصوير الإشعاعي لتراكيبه، وعرفت بعض الفوارق التشريحية والوظيفية مع الحيوان، وأمكن تصور آلية بعض الوظائف العليا كالتذكر والتعلم، واليوم ونحن في مستهل قرن جديد يبشر بغزو المجال الفكري واكتشاف إمكانات المخ في التوجيه الفطري تفاجئنا تلك الأبحاث العلمية باكتشاف يجعل الإيمان بالله تعالى وعبادته نزوعاً فطرياً وملكةً مغروسة بالمخ لها آلياتها ومراكزها، وإذا لم يحسن الإنسان توظيفها فقد أهم ما يميزه عن الحيوان وتعرض لفقدان التوازن النفسي والبدني.

وخلاصة الأبحاث التي أجريت على المخ بتقنية جديدة لأشعة إكس ونشرت عام ٢٠٠١م، وقام بها فريق علمي على رأس البروفيسور أندرو نيوبيرج^(٢) أستاذ

(١) الدين: لدراز: ص(٨٣).

(٢) انظر موقعه على الانترنت: <http://www.andrewnewberg.com/default.asp>

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع الذي كُتبت عنه مئات الصفحات على الإنترنت انظر مثلاً:

علم الأشعة Radiology بكلية الطب بجامعة بنسلفانيا في فلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية هي أن "الإيمان بالله مقصد مصمم داخلياً Built-in Design في المخ"، وبهذا لا يمكن لأحد التخلص منه إلا تعامياً عن الفطرة السوية التي جعلت الإنسان ينزع للتدين على طول التاريخ وتعطيلاً لقدرات هائلة وإمكانات بالغة التعقيد والتطور تمكنه من العلم بالله بالاستقراء والتفكير والتحليل والاستنتاج.

وكما أعلن البروفيسور نيويرج بأنه يمكن وصف الإنسان بأنه "محبول على التدين Hard-wired for religion" وأن "التجربة العملية لا يمكنها أن تخبرنا بطريقة مباشرة عن ذات الله ولكنها تخبرنا كيف أعد الله الإنسان لكي يعرفه"، وهي تخبرنا أن "عبادة الله ووظيفة الإيمان به مطلب طبيعي يماثل الطعام والشراب"، و"المخ البشري ليس معداً تشریحياً ووظيفياً فحسب للإيمان بالله وعبادته وإنما هو أيضاً مهياً عند قيامه بوظيفة العبادة لحفظ سلامة النفس والبدن بتوجيه العمليات الحيوية خلال منظومة عصبية وهورمونية متشابكة".

يقول البروفيسور بليتريني من جامعة بيزا في إيطاليا: « إن كل شيء نفعه أو نستشعره من نشاط بسيط كحركة إصبع إلى أعماق الانفعالات العاطفية الخبيثة بالنفس أو البادية مثل الغضب والحب يرسم خريطة مميزة المعالم للمراكز المتأثرة بالمخ ويصاحب كل شعور نموذج محدد يمكن تسجيله وتحليله كالتحاليل الطبية العضوية تماماً»، وهذا المجال الجديد لاستطلاع دخيلة الإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار ومدى تأثيره بالاعتقاد الديني يدخل فيه الباحثون اليوم بحذر حريصين على المنهج العلمي في البحث والتحليل كبقية مجالات العلوم التجريبية.

ويقول البروفيسور "مايكل ماكلوف" من جامعة دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية: « يتأثر الوجدان النفسي الروحي بالعالم الخارجي ويؤثر في الجسد

﴿ ١١ ﴾

http://www.thenarrow.org/archives/2005/01/report_children.html

http://dir.salon.com/books/feature/2001/02/01/god_part/index.html

العضوي ويمثل الإيمان والعبادات صمام أمان لتلك التأثيرات الطبيعية «، وقد أفضت دراسته إلى أن الطبيعة البشرية مصممة بحيث تحفظها العبادات في توازن تام وتقيها الاضطراب، وفي تحليل شمل ٤٢ دراسة ميدانية واسعة وجد بروفيسور ماكلوف أن « معدل الوفيات يقل بالاستغراق في الصلاة وبقية العبادات، وهذا التأثير مستقل عن عوامل أخرى مضرّة بالصحة كتناول الخمر والتدخين «، ولم يفت البروفيسور نيوبيرج أن يعلق على تلك النتيجة بقوله: « نحن لا ندرى حتى الآن على وجه اليقين كيف يؤدي الإيمان العميق والاستغراق في العبادة إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن ومكافحة المرض وتأخير الموت، ولكن معرفتنا لآليات عمل الجسم وخاصة المخ تؤهلنا لتلمس آفاق جديدة من البحث لنثبت بحياد يوماً ما وجود تأثيرات عضوية للإيمان والعبادة، وندرك منها اليوم الحفاظ على معدل طبيعي لضربات القلب وضغط الدم وتغير الهورمونات كمّاً ونوعاً والميل العصبي لتحقيق حالة من الهدوء نتيجة الخشوع.

وإذا كان البروفيسور نيوبيرج يقرر بأنه لا يدري كيف يؤدي الإيمان العميق إلى الحفاظ على سلامة النفس والبدن.

فإننا نحن أهل الإسلام ندرك إدراكاً يقينياً السبيل إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي والبدني، إذا لم تتبدل فطرتنا وسرنا وفق ما أمرنا به خالقنا وفاطرنا ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الذّين همّ في صلاتهم خاشعون] [المؤمنون: ١-٢].

وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة»^(١).

الملاحق

Coming March 2009

Breakthrough Findings from a
Leading Neuroscientist

HOW
GOD
CHANGES
YOUR
BRAIN

ANDREW NEWBERG, M.D.,

Co-author of *Why God Won't Go Away*

and MARK ROBERT WALDMAN

غلاف كتاب للدكتور/ أندرو نيوبرج بعنوان
(How God Changes Your Brain)

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث أبين وجه الإعجاز وأهم ما توصلت إليه من نتائج سائلاً الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً صواباً.

فأقول مستعيناً بالله:

لقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة التي أجريت على فئات مختلفة من الناس في مناطق متعددة وبواسطة علماء من جامعات أكاديمية مشهورة: (أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هي إحدى النزعات العالمية الخالدة).

وتلك النتائج العلمية الباهرة تتوافق مع ما جاء به الإسلام، وقرره علماء الإسلام قبل ألف وأربعمائة سنة!!.

وفي ذلك دليل قاطع على صدق القرآن ومبلغه الذي هو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

كما أنه دليل صريح على صحة عقيدة الإسلام، وانسجام ذلك مع طبيعة الإنسان وتكوينه الفطري.

وأنه حينما ينسجم عقدياً مع تلك الفطرة المركوزة فإن آثار ذلك لا ينعكس على مستقبله الأخروي فحسب، بل إن ذلك ينفعه في دنياه من الناحية النفسية والصحية.

وصدق الله القائل: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) والقائل: (أفلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)، والقائل: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون).

والآن أُجْمَلُ فِي هَذِهِ الْخَاتِمَةِ أَهَمُّ مَا تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ نَتَائِجِ:

(١) أَنَّ الْفِطْرَةَ فِي اللُّغَةِ لَهَا مَعَانٍ عَدِيدَةٌ، كَالشَّقِّ وَالْخَلْقَةِ وَالْإِبْتِدَاءَ وَالْإِخْتِرَاعَ وَغَيْرَهَا.

(٢) أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي بَيَانِ مَعْنَى الْفِطْرَةِ إِلَى عِدَّةِ أَقْوَالٍ، بَيِّنٌ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُ السَّلَفِ وَجَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ هُوَ تَفْسِيرُهَا بِالْإِسْلَامِ.

(٣) أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ أَنَّ الْمَوْلُودَ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ: أَنَّهُ يُولَدُ وَهُوَ يَعْلَمُ هَذَا الدِّينَ وَيُرِيدُهُ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ أَنَّ فِطْرَةَ الْمَوْلُودِ تَسْتَلْزِمُ الْإِقْرَارَ بِالْخَالِقِ وَمُحِبَّتَهُ، وَمَوْجِبَاتِ الْفِطْرَةِ وَمَقْتَضِيَّاتِهَا تَحْصُلُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ بِحَسَبِ كِهَالِ الْفِطْرَةِ إِذَا سَلِمَتْ مِنَ الْمَعَارِضِ.

(٤) أَنَّ فِي نَصُوصِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ غَنِيَّةً بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْيَقِينِيَّةِ عَلَى أَصُولِ الْإِعْتِقَادِ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهَا مَجْرَدُ أَدْلَةٍ سَمْعِيَّةٍ تَحْتَاجُ إِلَى بَرَاهِينٍ خَارِجِيَّةٍ.

(٥) أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِطْرِيَّةٌ خِلَافًا لِلْمَتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يَقَرُّونَ بِأَنَّهَا نَظْرِيَّةٌ.

(٦) أَنَّ الْأَدْلَةَ الْقُرْآنِيَّةَ قَدْ جَلَّتِ الْمُرَادُ بِحَقِيقَةِ الْفِطْرَةِ مُوضِحَةً لِمَعْنَاهَا وَجَاءَتْ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ مَكْمَلَةً لِهَذَا الْمَعْنَى مُؤَكِّدَةً عَلَيْهِ.

(٧) إِثْبَاتُ الْفِطْرَةِ وَتَأْصِيلُهَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الْعُلَمَانِيِّينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ فَصْلَ الدِّينِ عَنِ شَتَّى مَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ تَجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ دُونَ إِخْلَالِ بِالْقِيمِ وَالْمَقَاصِدِ النَّبِيلَةِ.

(٨) تَوْجِدُ أَبْحَاثٍ تَجْرِيْبِيَّةٍ يَجْرِيهَا عُلَمَاءُ الْغَرْبِ عَلَى الْمَخِّ الْبَشْرِيِّ تَقَرَّرُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَهُ مَوَاضِعُهُ فِي الْمَخِّ، وَهَذِهِ الدِّرَاسَاتُ لَا تَزَالُ نَظْرِيَّاتٍ وَلَعَلَّهُ يَظْهَرُ لَنَا بَعْضُ مَا كُنَّا نَجْهَلُهُ عَنِ "الْمَخِّ الْبَشْرِيِّ" (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا). وَالِدَّلَائِلُ النَّقْلِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَالْحَسْبِيَّةُ تُوَكِّدُ لَنَا فِطْرِيَّةَ الْمَعْرِفَةِ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ التَّجْرِيْبِيَّةِ الطَّبِيَّةِ.

وأوصي في ختام البحث:

- (١) الاعتماد على المنهج القرآني في ترسيخ الإيمان واليقين.
- (٢) إبراز الأدلة القرآنية في مخاطبة العقول، فإنه ما من أصل من أصول الاعتقاد يمكن الاستدلال عليه عقلاً، إلا وفي النقل التنبيه على ذلك، علمه من علمه وجهله من جهله.
- (٣) تنقية المناهج الدراسية مما علق بها من مسائل ودلائل المتكلمين والفلاسفة التي عطلت الفكر الإسلامي وأخرت المسلمين وأشغلتهم بالمسائل التي لا ينبغي عليها علم نافع وعمل صالح.
- (٤) المزيد من الدراسات المؤصلة التي تبرز عظمة وإعجاز القرآن التشريعي في مختلف المجالات، والملاحظ هو انشغال كثير من الباحثين بالإعجاز العلمي، وعدم إعطاء هذا المجال حقه الكافي من الدراسات.
- (٥) دراسة "آية الميثاق" دراسة موضوعية مفصلة تجمع أقوال المفسرين فيها، والروايات الحديثية وتمييز صحيحها من ضعيفها.

والله تعالى أعلم وأحكم والهادي إلى سواء السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس المراجع

- ♦ أخذ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ :
عبدالعزيز بن عبدالرحمن العثيم، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى،
١٤١٩هـ.
- ♦ التحرير والتنوير: لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر والتوزيع،
تونس، ١٩٨٤م.
- ♦ تفسير البغوي المسمى "جامع البيان في تأويل القرآن" : لأبي جعفر محمد بن
جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ♦ تفسير القرآن العظيم: للحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: محمد
إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، نسخة دار ابن حزم، تحقيق محمد
البنا، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- ♦ التفسير الكبير: لفخر الدين أبي بكر الرازي، دار إحياء التراث العربي،
بيروت، الطبعة الثالثة.
- ♦ تفسير النسفي المسمى "مدارك التنزيل وحقائق التأويل" : للإمام أبي
البركات عبدالله بن أحمد النسفي.
- ♦ حاشية الشهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البيضاوي"،
دار صادر، بيروت.
- ♦ درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية،
تحقيقي محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

- ◆ دلائل التوحيد: للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: خالد عبدالرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.
- ◆ الدين: بحوث مهمة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبدالله دراز، دار القلم، الكويت، ١٤١٠هـ.
- ◆ سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، طبعة منقحة، ١٤١٥هـ.
- ◆ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: خالد السبع، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ◆ فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها: لأحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- ◆ كل مولود يولد على الفطرة: لتقي الدين أبي الحسن السبكي، تحقيق: محمد السيد أبو عمة، دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- ◆ المعرفة في الإسلام مصادرهما ومجالاتها: عبدالله محمد القرني، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.



فهرس الموضوعات

المقدمة	١
المطلب الأول: الفطرة في لغة العرب	٤
المطلب الثاني: أقوال علماء أهل السنة والجماعة في معنى الفطرة	٦
المطلب الثالث: حقيقة الفطرة من خلال الأدلة القرآنية	١١
المطلب الرابع: أسباب تغير الفطرة	٢٥
المطلب الخامس: فطرية التدين في الدراسات الحديثة	٣١
الملاحق	٣٥
الخاتمة	٣٦
فهرس المراجع	٣٩
فهرس الموضوعات	٤١

